# الرواية والرواة في أدبنا العربي

إذا قلنا الرواية والرواة في أدبنا مشكلة من مشكلات هذا الأدب فهل نستطيع أن نحل هذه المشكلة؟ ولكن لماذا أميل إلى الشؤم في فاتحة الكلام، لماذا لا أسرع في الكلام على أولية الرواية وعلى أول من جمع الأشعار والأخبار وعلى شروط الرواية وآداب الرواية وعلى أكاذيب من كذب وصدق منْ صَدق من الرواة وأخيراً على الرواية في كتاب الأغاني؟ .

فلنشرع في الكلام على هذا كله .

إذا أردنا أن نحيط بالأمور التي تقدم ذكرها فإن كتب أدبنا فيها المقنع، إلا أن طائفة من المستشرقين لم يكتفوا بهذه الإحاطة، فقد وسعوا آفاق بحثهم عن الرواية والرواة، وفي جملتهم بلاشير أستاذ الأدب في كلية الآداب بباريز. لقد اهتموا بمعرفة هذا الأمر: هل كان الشاعر في الجاهلية يكتب شعره؟ ووصلوا إلى القول إن الخط العربي قد انتشر في شبة جزيرة العرب، ولكنهم لم يوضحوا الأماكن التي انتشر فيها هذا الخط، إلاّ أن الواضح كل الواضح أن الخط انتشر بعد تدوين القرآن الكريم، وبعد استعمال العربية في الدواوين، غير أنه ليس في الواضح أن الشاعر في الجاهلية قد لجأ إلى الخط في تدوين شعره، على أن فئة من المستشرقين ذهبوا إلى أن الشاعر الجاهلي كان يعرف أن يمسك بالقلم بيده، واستدلوا على ذلك ببعض الأمور والتشبيهات التي وردت

في شعر الجاهلية، فليس بالأمر الغريب في رأيهم أن يكون بعض الشعراء المقيمين بمكة أو بالطائف أو بالحيرة كانوا يلقون الخطوط الأول من قصائدهم على الورق، إلا أنهم خرجوا من هذا كله بالنتيجة الآتية: أن الأثر الشعري في العصور القديمة كان يرتجل ارتجالا، فلم يكتب شعراء الجاهلية أشعارهم، فقد كان الشعر يأتيهم عفوا فيرتجلونه حتى إذا ذهبوا ذهب الشعر معهم، فمن الذي كان يتذكر هذا الشعر أومن الذي كان يضمن له الدوام؟ ثم استدركوا ما قالوا بقولهم إن التاريخ قد نقل لنا خير شعراء اشتدت عنايتهم بتنقيح شعرهم وعلى رأسهم زهير الذي كان يهذب شعره ويطيل النظر فيه.

لقد كثر حدَسهم ووهمهم في أمر تفكير شعراء الجاهلية في كتابة أشعارهم، ولكن هذا الحدس لم تكن له نتيجة واضحة، والنتيجة الواضحة أن شعر الجاهلية كان ينتقل من فم إلى فم، فكان للشعراء رواة، فزهير كان راويته ابنه كعباً وزهير نفسه كان راوية أوس بن حجر، لقد كان عمل الرواية عظيما، هم الراوية أن يساهم في نشر الشعر وإذا لم يستطع الشاعر نفسه أن ينشد شعره وينشره بين الناس قام مقامه راويته، وإذا مات الشاعر فإن شأن الراوية يزداد فلا يقتصر عمله على رواية الشعر وحده وإنما يمتد هذا العمل إلى جمع ما بعثر من الشعر وتوضيح الأحوال التي قيل فيها، فالراوية كان بمثابة مستودع لآثار الشاعر تهتم به القبيلة بأجمعها، ولكن هل كان الرواة يستخدمون أقلامهم في تثبيت الشعر في جماهير الناس، فلم يستطيعوا أن يقطعوا بهذا الأمر.

على أن كتب أدبنا لم تخل من الإشارة إلى معرفة نفر من أهل الجاهلية للكتابة، فالكتابة كانت معروفة قبل الإسلام، فمن أهل الجاهلية

نفر ذو عدد كانوا يكتبون، واشتهر في الإسلام بالكتابة من علية الصحابة عمر وعثمان وطلحة وأبو عبيدة وأُبيٌّ بن كعب وزيد بن ثابت ويزيد بن أبي سفيان، وكثر من يكتب بمكة من قريش، وتعلم المهاجرون الكتابة من أهل الحيرة، كما تعلمها أهل الحيرة من الأنبار، ولا نستطيع أن نقول إن العرب كلهم في تلك الأزمان، أهل المدر منهم وأهل الوبر قد عرفوا الكتابة كلها والحروف كلها، فمنهم من كان يعرفها ومنهم من كان يجهلها، ولكن المهم أن الكتابة كانت معروفة، وبعد أن فرغ المستشرقون من الكلام على الراوية في الجاهلية انتقلوا إلى الكلام على الرواة في الإسلام، فلم يختلفوا كثيراً عما ذكره علماؤنا في القديم، ففي رأيهم نشأت الدولة في الإسلام ونشأت الاختلافات، وهم يريدون بهذه الاختلافات تنافس القبائل وعنايتها بالمفاخر والمثالب والحروب والأنساب وغير ذلك حتى كان الخلفاء يضطرون إلى الاستعانة برواة الأخبار والأشعار والأنباء لتأييد أمر أو لنفي أمر، وقد يدخل في الاختلافات نغمة اليمن ومضر وما تبع هذه النغمة من الاهتمام بالمفاخر والمثالب.

وقد وضّح أبو عمرو بن العلاء أولية الرواية في الإسلام في قوله: لما راجعت العرب في الإسلام رواية الشعر بعد أن اشتغلت عنه بالجهاد والغزو، واستقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم وأشعارهم، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسن شعرائهم، ثم كانت الرواية.

من هذا يتبين لنا أنه لما اتسع الإسلام واتسعت باتساعه الفتوحات، فتوحات الشام والعراق ومصر وفارس كان لابد لكل قبيلة من العناية

بجمع مفاخرها وحروبها والاهتمام بجمع مثالب أعدائها، ويذكر بعض المؤرخين أن معاوية هو أول من اعتنى بالأخبار وسير من تقدم من الملوك، عربهم وعجمهم، ولما كان الشعر ديوان علم العرب ومنتهى حكمتهم كانت القبيلة، على ما ذكره ابن رشيق، إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس، وتباشر الرجال والولدان بالرقص لأنه حماية لأعراضهم وذبٌّ عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة لذكرهم.

ولكن في أي عصر بدأ التدوين؟ ذهبت فئة إلى أن التدوين، أي تدوين الشعر كان قديما في العرب، فقد كان عند آل النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو نشأ أهل بيته فصار ذلك إلى بني مروان، وكيف كان الأمر إن التدوين أول ما نشأ نشأ في المدن الكبيرة في البصرة والكوفة وفي المدينة ودمشق. فالشعر الجاهلي كان عرضة لكل زيادة أو نقصان حتى العصر الذي بدأ فيه التدوين، وقد حدد بعضهم هذا العصر فقالوا هو أواخر القرن الهجري الأول، وبعضهم جعل التدوين من أيام عمر بن أبي ربيعة. وقد تكاثرت الآراء في هذا الباب، فعلى أيام الوليد جمع أحد الخطاطين لهذا الخليفة أشعارا وأخباراً وقالوا إن الفرزدق كان عنده ديوان مخطوط لزهير .

وإذا عرفنا أولية الرواية وعصر التدوين لزمنا أن نعرف أول من جمع أشعار العرب، يقول الجمحي: إن أول من جمع أشعار العرب وصان أحاديثهم حماد الراوية .

ولما كان للرواية شأن غير يسير في أدبنا وضعوا للرواة آدابا. وقد عقد صاحب المزهر في كتابه فصلا في من تقبل روايته ومن ترد، نقل فيه كثيرا من كلام أئمة اللغة على شروط الرواية والرواة. ومن أعظم هذه الشروط في رأى ابن فارس والأنباري الصدق والأمانة والعدالة، حتى إذا كان ناقل اللغة

فاسقاً لم يقبل نقله، لقد قال ابن فارس: فليتحر آخذ اللغة أهل الأمانة والصدق والثقة والعدالة، فقد بلغنا من أمر بعض مشيخة بغداد ما بلغنا .

وقال الخليل: إن التحارير ربما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب إرادة اللبس والتعنيت.

ولا تنطبق هذه الأقوال على نقل أصل اللغة وحدها ولكنها تنطبق على نقل الشعر أيضا فعلى الرغم من شروط الرواية وآداب الرواة وقع الشك في نقل كثير من الرواة. فنشأت الرواية منشأ الرواة، فكان الرواة صفين، صف منهم عرف بالعفة وصف عرف بالأكاذيب، أما الصف الأول فقد عقد لهم ابن جنّي في كتاب الخصائص بابا في صدق النقلة وثقة الرواة والحَمَلة، أثنى فيه على الثقات منهم كأبي عمرو بن العلاء والأصمعي والكسائي وغيرهم، فأبو عمرو هو أبو العلماء وكهفهم ويد الرواة وسيفهم، والأصمعي صناجة الرواة والنقلة والكسائي صاحب العقل والعفة، وقد دافع ابن جنّي عن بعض الذين تعرضوا منهم للطعن، فهذه الطبقة من الرواة، لا شأن لنا معها إنها عرفت بالصدق والأمانة والعدالة، فلم يدخل الضيم معهم على اللغة والشعر لأنهم لم يشوهوا الشعر ولا شوهوا اللغة بالوضع على الألسنة وباختراع الأكاذيب، وأما الطبقة الثانية من الرواة فأصحابها هم الذين خلقوا المشكلة في أدبنا، هم الذين خلقوا لنا مشكلة لم تحل حتى يومنا هذا ولا بأس بأن نعرف شيئاً من أكاذيبهم وشهادة الناس فيهم، ولكن هذا الباب طويل، إذا أحببنا الاستقصاء فيه فإنا لا ندري كيف نخرج منه، وإنما حسبنا الاكتفاء باليسير مُما قيل في هذا المعنى.

فمن أكاذيب حماد ما روي عنه في كتب الأدب: كان أحد الناس عند حماد، فجاءه أعرابي فأنشده قصيدة لم تعرف ولم يدر لمن هي، فقال

حمّاد: اكتبوها وقام الإعرابي، قال: لمن ترون أن نجعلهما؟ فقالوا أقوالاً، فقال حماد: اجعلوها لطرفة.

وكان حمّاد يلحن ويكسر الشعر ويصحف ويكذب. والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ولكن أكثره مصنوع، ومنسوب إلى من لم يقله، وذلك بيّن في دواوينهم.

وفي أخبار طريح في الأغاني أنه كان مختصاً بالوليد بن يزيد، كان يكرمه وكانت له منزلة قريبة ومكانة، وكان يدنيه من مجلسه ويجعله أول داخل وآخر خارج، ولم يكن يصدر إلا عن رأيه فاستفرغ مديحه كله وعامة شعره فيه، فحسده ناس من أهل بيت الوليد وشكوا ذلك إلى حماد الراوية، فعمل حمّاد بيتين من الشعر على لسان طريح ودفع البيتين إلى الخصيّ الذي كان يقوم على رأس الوليد وعلّموه إياهما لينشدهما الوليد وليقول له إذا سأله عنهما إنهما لطريح، فكان هذان البيتان السبب في نكبة طريح.

وفي أخباره في كتاب الأغاني أن الطرمّاح أنشده قصيدة في مسجد الكوفة فلما سمعها حماد ادعاها لنفسه ونفاها عن الطرمّاح، فطال الكلام بينهما في هذا الشأن حتى قال الطرمّاح لحماد أنت رجل ماجن، والكلام معك ضائع.

وفي رأي الجمحي أن حمّادا كان غير موثوق به وكان ينحل شعر الرجل غيره ويزيد في الأشعار وقد روى شيئاً من زياداته.

ولم يكن خلف أعف من حماد في الوضع، كان خلف مولى أبي بردة بن أبي موسى الأشعري أعتقه وأعتق أبويه وكان أعلم الناس بالشعر، وكان شاعراً ووضع على شعراء عبد القيس شعراً موضوعاً كثيراً وعلى غيرهم، وأخذ ذلك عنه أهل البصرة وأهل الكوفة، ولم ير أحد قط

أعلم بالشعر والشعراء منه، وكان يضرب به المثل في عمل الشعر، وكان يعمل على ألسنة الناس، فيشتبه كل شعر يقوله بشعر الذي يضعه عليه، ثم نسك فكان يختم القرآن في كل يوم وليلة، وبذل له بعض الملوك مالا عظيما خطيرا على أن يتكلم في بيت شعر شكُّوا فيه فأبى ذلك، وعليه قرأ أهل الكوفة أشعارهم وكانوا يقصدونه لما مات حماد الرواية لأنه قد أكثر الأخذ عنه وبلغ مبلغا لم يقاربه حمّاد، فلما نسك خرج إلى أهل الكوفة فعرّفهم الأشعار التي قد أدخلها في أشعار الناس فقالوا له: أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة، فبقي ذلك في دواوينهم إلى اليوم.

وفي آمالي القالي كان خلف يقول القصائد الغر ويدخلها في دواوين الشعراء، وقد وضع على ألسن الشعراء قصائد ذكرت في بعض كتب الأدب، منها كتاب المزهر، ففيه أمثلة من الأبيات المستشهد بها التي قيل إنها موضوعة.

وأبو عمرو بن العلاء، على عفته والذي قال فيه ابن جنّي: أبو العلماء وكهفهم، ويد الرواة وسيفهم قال ما زدت في شعر العرب إلاّ بيتاً واحدا، يعني ما يروى للأعشى من قوله:

***وأنكرتني وما كان الذي نكرت  من الحوادث إلاّ الشيب والصّلعا***

ولكنه اعترف بزيادته، وتراجع فيه إلى الله تعالى. ولم ينفرد حمّاد وخلف وغيرهما بالوضع والأكاذيب، فقد انضم إليهم ناس كثيرون قال الأصمعي: أقمت بالمدينة زمانا ما رأيت بها قصيدة واحدة صحيحة إلاّ مصحّفه أو مصنوعة، وكان ابن دأب يضع الشعر وأحاديث السمر وكلاما ينسبه إلى العرب، فسقط وذهب علمه وخفيت روايته وكان شاعرا وعلمه بالأخبار أكثر.

وقد قال أبو عبيدة إن ابن داود بن متمّ بن نويرة قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي من الجلب والميرة، فسأله أبو عبيدة ومن كان معه عن شعر أبيه متمّم وقاموا له بحاجته فلما فقد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويضعها لهم، وإذا كلام دون كلام متمّم، وإذا هو يحتذى على كلامه فيذكر المواضع التي ذكرها متمّ والوقائع التي شهدها، فلما توالى ذلك علم أبو عبيدة وأصحابه أنه يفتعله.

إلاّ أن رواة الشعر كانوا ينقدون الشعر في الزيادات، ففي أمالي القالي على لسان يحيى بن سعيد القطان أن رواة الشعر أعقل من رواة الحديث، يروون مصنوعاً كثيراً ورواة الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه ويقولون: هذا مصنوع.

وكما كانت العناية برواية الشعر. كذلك كانت العناية بجمع اللغة والنحو والتصريف وكانت البصرة والكوفة مسرحي رجال هذه العلوم، منهم أبو عمرو بن أبي العلاء والثقفي والكسائي، وقد نشأت الخلافات بين علماء البصرة وعلماء الكوفة، ولكل بلدة مذهب في اللغة معروف قد يستغنى عن الإفاضة فيه، وقد انصرفت عناية أولئك العلماء، علماء العراق إلى دراسة القرآن والشعر والأنساب والأخبار فاختص سيبويه والخليل بالنحو، وشماح باللغة، كما اشتهر أبو عبيدة بعلم اللغة والأخبار، وعمرو بن شيبة والهيثم بن عدي وابن البكار بجمع التاريخ والتراجم، فتضافرت همم العلماء على العناية باللغة والنحو والحديث، ومن ذلك نشأ الاهتمام بوضع المعجمات.

أما رواية اللغة فإنها تختلف بعض الاختلاف، لقد اجتهد كثير من علماء اللغة في تدوين مفرداتها، ويدخل في هذه المفردات الغريب

والنوادر والشوارد، وقد التقطوا أكثر الألفاظ من أفواه أهل البادية، فقد اتسع علمهم بحياة البدو ولغة القبائل وأخبارها وأيامها وأنسابها، إننا لا نرى في ذلك، ولا شك في أن أثرت النوادر والشوارد والغريب في الألفاظ لم تتعجل في أيام بني العباس، فإن أيامهم كانت أيام حضارة، والألفاظ الغريبة والحوشية تموت عادة في عصر الحضارة، فلا تشيع على ألسن الكتّاب والشعراء، وإذا كان فضل في تدوين اللغة العربية فعنوان هذا الفضل أن اللغة تعبر عن روح الأمة، عن مزاجها وأخلاقها وسجاياها، عن تقاليدها وعواطفها، وشعورها، فالألفاظ التي دونت في عصر التدوين هذه هي مزاياها إنها صورة الأمة التي ظهرت فيها على أنه ما انتهى إلينا مما قالت العرب إلا أقله، هذا ما قاله، أبو عمرو بن العلاء.

وإذا كنا نبحث عن الرواية والرواة في أدبنا فلا يجدر بنا أن نغفل عن الإشارة إلى كتاب جمع الكثير من أدب العرب في الجاهلية وفي عصور الصدر الأول وبني أمية وبني العباس، وبني كتابه على الروايات والأسانيد، أريد بهذا الكتاب: كتاب الأغاني لصاحبه أبي الفرج الأصبهاني.

لم يكن أبو الفرج من نمط الرواة الذين سبقت الإشارة إليهم، فلم يقتصر في رواياته على ذكر الأشعار والأخبار والأيام، وإنما امتدت هذه الروايات إلى آفاق أبعد، امتدت إلى سير الملوك في الجاهلية والخلفاء في الإسلام، فذكر لنا أشياء قليلة من مجالس الملوك في الجاهلية ومن قصور الخلفاء في الدولتين.

فقد تكلم على لهو بعض الخلفاء وتبذيرهم وترفهم، تكلم على أشياء

مخفية، فكان همّه أن يدخل على الخلفاء قصورهم وأن يسمع بأذنيه ما يتساقطونه من الأحاديث، ويرى بعينيه منازل الجواري والقيان والمغنيات من قلوبهم، فكأن له نزعة خاصة إلى أشباه هذه الأخبار، حتى يعلم الناس بما يجري في قصور خلفائهم وأمرائهم وعمّالهم، وحتى يطلعهم على أمور تذهب بكل هيبة وبكل حرمة، فإذا كانت غايته ما أشرت إليه فلا شك في أن فضله عظيم، فقد نبه الأذهان على أمور كانت غافلة عنها، والخلاصة إذا رمى في تأليفه كتابه إلى بعض ما ذكرته فكأنه أراد أن يستثير العصور على شكل من الحياة، لقد آن لنا أن نعرف مرامي أبي الفرج وأن نبحث عنها، ولم يقتصر في أغانيه على أخبار الملوك والخلفاء وحدهم، وإنما كان إذا روى أخباراً لها صلة بحرية الناس وعبوديتهم روى من هذه الأخبار ما يقوّي الميل إلى هذه الحرية والنفرة من هذه العبودية، وتحصيل القول أن كتاب الأغاني يشتمل على نوع من الحياة بحذافيرها، فإذا كانت روايات الأغاني على هذا الشكل من الشأن فلا شك في أن الذي يهمنا قبل كل شيء إنما هو التوثق من صحة هذه الروايات ومن صدق صاحبها.

نظن أن المجال لا يتسع للإفاضة في الكلام على أبي الفرج الأصبهاني من مجامع نواحيه، فلا مندوحة لنا عن الإيجاز في ذكر أشياء تتعلق به من ناحية أدب الرواية وأخلاق الرواة، فالذي تبين لنا من دراسة الأغاني أن من أخلاق صاحبه المسامحة والإنصاف وأدب النفس، وغير ذلك، وقد تهمنا الإشارة إلى هذه الأخلاق لصلتها القوية برواياته لأن كتاب الأغاني كما ذكرنا مبني على الروايات والأسانيد.

إذا أردنا أن نستشهد بكل ناحية من نواحي أبي الفرج امتدّ بنا الكلام، فلا أقل من الإلمام إلى هذه النواحي إلماماً، فمن أخلاقه مثلاً أنه لا

يجعل لأخلاق أهل الفن صلة بنقد فنهم، فإذا ذكر طائفة سيئة من أخلاق بعض الشعراء فإنه يفصلها عن شعرهم، فلا يجعل لها تأثيراً في نقد هذا الشعر، من هذا النحو مثلاً رواية خبر في كلامه على الأحوص وعلى أبي تمام وابن المعتز وغيرهم، ومن الهيّن الرجوع إلى أشباه هذه الأخبار فقد يذكر مثلاً ما يروى عن الشاعر مما يعتقده الناس تأخراً ونقصاً ثم لا يغفل في هذا كله عن الشهادة له بحسن رونق شعره وصفائه إذا كان جديراً بمثل هذه الشهادة، فلا يجعل للنقص سبيلاً إلى الغض من فضيلة الشعر.

وقد بلغ من إنصافه أنه لمّا ذكر كعب بن الأشرف لم يبخسه حقه على يهوديته وعلى عداوته للنبي صلى الله عليه وسلم.

وإذا كان لا بد من ذكر شيء من كلامه في هذا المجال فإني أذكر كلامه على جحظة، فقط تكلم على أحمد النقيبي صاحب الأنصاب وأول من عنى بها فقال:

وذكره جحظة في كتاب الطنبوريين فأتى من ذكره بشيء ليس من جنس أخباره ولا زمانه، وتليه فيما ذكره، وكان مذهبه، عفا الله عنا وعنه، في هذا الكتاب أن يثلب جميع من ذكره من أهل صناعته بأقبح ما قدر عليه، وكان يجب عليه ضد هذا لأن من انتسب إلى صناعة ثم ذكر متقدمي أهلها كان الأجمل به أن يذكر محاسن أخبارهم وظريف قصصهم ومليح ما عرف عنهم، لا أن يثلبهم بما لا يعلم وما يعلم.

إني لم أذكر ما ذكرت في اليسير من أخلاق صاحب الأغاني إلا لصلة هذا كله برواياته، وقد نسبوه إلى التشيع، والذين نسبوا التشيع إليه لا يقتصرون على مشايعته لعلي رضي الله تعالى عنه أو لذريته، وإنما يريدون بذلك أنه غير محق في الأخبار التي يرويها عن الذين انحرفوا

عن علي وحزبه وقاتلوهم كبني أمية أو كبني العباس الذين قاتلوا الطالبيين.

لقد روى أخبار طائفة من خلفاء بني أمية، في جملتهم هشام، وروى أخباراً عن يزيد بن معاوية فلم يؤثر تشيعه الذي نسبوه إليه في هذه الروايات ولا طوى من حسنات المنحرفين عن عليّ ولا زور سيئات عليهم، معنى هذا أنه كان ثقه في أخباره، يحاسب ضميره ووجدانه، يقول الحق على جماعته وعلى عدوه على السواء.

إني لآسف أن المجال يضيق عن الاستشهاد بتأييد ما قدّمت وإن كانت مواطن الاستشهاد مبعثرة في كتاب الأغاني ولا يصعب على أحد الرجوع إليها.

وما قدّمت ما قدّمت إلاّ للوصول إلى الكلام على براءة ذمة أبي الفرج في رواياته، وعلى نقده للرواة ونقد الرواة له، وعلى تحقيقه في رواياته، إلا أنه ليس من السهل الإفاضة في هذا الباب في مثل هذه المحاضرة، ولكن لا مفرّ من الإشارة إلى أشياء يسيرة من هذا القبيل.

يروي عن عمه خبراً من الأخبار ثم يقول: وأنا ذاكر مما وقع إليّ في أخباره، أي من أخبار مجنون بني عامر، جملاً مستحسنة، متبرئاً من العهدة فيها، فإن أكثر أشعاره المذكورة في أخباره ينسبها بعض الرواة إلى غيره وينسبها من حكيت عنه إليه، وإذا قدمت هذه الشريطة برئت من عيب طاعن ومتبع للعيوب.

فهذه العبارة تدلنا على مقدار ورعه في الروايات، فالصدق وشدة التوقي أبرز خصائص أبي الفرج في رواياته، وحسبنا أن نعلم أخلاق بعض الذين حمل العلم عنهم، فقد قال في أخبار أبي عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن أبي محمد: كان فاضلاً، عالماً، ثقة فيما يرويه،

منقطع القرين في الصدق وشدّة التوقي فيما ينقله، وقد حملنا نحن عنه وكثير من طلبة هذا العلم ورواته علماً كثيراً، فسمعنا سماعاً جماً.

إنا لا نشك في أن أخلاق هذا العالم الفاضل قد أثرت في أبي الفرج الأصبهاني من ناحية الصدق وشدة التوقي، وقد بلغ من حرصه على الحقيقة أنه كان يهتم بها بعد موته على نحو اهتمامه بها في حياته، ونجد ما يثبت ذلك في الفصل الذي عقده لأغاني الخلفاء.

لم يرو أبو الفرج أخباره على علاتها، فإذا وجد سبيلاً إلى نقد الرواة نقدهم حرصاً على الحقيقة، فقد ينقل مثلاً خبراً عن ابن خرداذبة فكان يطعن عليه إذا لزم الطعن ولا يردّ بعض أقواله إذا كانت هذه الأقوال مقبولة، فكان في بعض الأحيان ينقد الرواة ويأتي بروايات تنقض أقاويلهم وابن خرداذبة أكثر الرواة الذين كذبهم، فقد عرَّض به في مواضع كثيرة من كتابه وكذلك ابن الكلبي.

وكما نقد الرواة فإنه لم ينج من نقدهم له، فقد رماه بعضهم بالكذب وقال إنه يدخل سوق الوراقين وهي عامرة والدكاكين مملوءة بالكتب، فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف ويحملها إلى بيته ثم تكون رواياته كلها منها. هذا هو التحامل! يسلخ صاحب الأغاني خمسين سنة في تأليف كتابه ويتوخى فيه الصدق وشدة التوقي، يجهد نفسه في البحث عن أصح الأخبار والروايات والأحاديث ويتبرأ فيها من كل عهدة، ويحاسب الرواة على الأكاذيب والخطأ والخطل، ويؤاخذهم بكل تحامل وحمق وسب وشتم وتجهيل، فيجيء أحد النقاد فيقول فيه إنه أكذب الناس دون أن يكلف نفسه بيان موطن من مواطن هذا الكذب، هذا هو الأمر الذي لا يرضى به منطق ولا خلق ولا ضمير.

على أن أبا الفرج إذ دخل سوق الوراقين واشترى الصحف فقد كان

إذا نسخ من كتاب أو جمع منه يقول: نسخت من كتاب كذا.. أو جمعت من كتاب كذا.. وقد نجده في بعض المواضع يقول: نسخت من بعض الكتب فلا يذكر أسماءها، أما أن ينسخ منها أو يجمع دون الإشارة إلى ذلك فهذا أمر نزهه عنه صدقه وأمانته.

سلك أبو الفرج في أغانيه مسالك المحدّثين، فإن كتابه لا يخلو من العبارات الآتية: أخبرني فلان.. حدثني فلان.. ثم يذكر بعد هذه العبارات أسانيد الأخبار والروايات والأحاديث، كان الراوية في بعض الأحيان يروي خبراً من الأخبار فيحفظه ثم يخلو إلى نفسه في ساعة من الساعات فينشئ الخبر وقد يزيد بعد الانتهاء قوله: واللفظ يزيد أو ينقص أو الحكاية تزيد أو تنقص.. ومعنى هذا أنه كان يروي الحكايات كما سمعها وقد تزيد هذه الحكايات أو تنقص ولكنها تحافظ على جوهرها، وأحياناً كان يجمع أخبار الرواة على اختلاف ألفاظهم ثم ينشئها إنشاء بألفاظه، وقد تزدحم عليه الروايات والأسانيد في بعض الأوقات فيفطن إلى التفصيل فيقول: أخبرني بخبره فلان قال: حدثنا فلان عن فلان وأضفت إلى ذلك ما رواه فلان عن أصحابه وما اتفقت الروايتان فيه فإذا اختلفتا نسبت كل خبر إلى راويه ولم يرو في أغانيه حديثاً أو خبراً أو حكاية دون ذكر الأسانيد.

أما الفصل الذي يدل على عناية أبي الفرج بالصدق والأمانة في رواياته فإنما هو فصل تحقيقه وتمييزه، وهو فصل طويل لا سبيل إلى اختصاره، كان مثلاً يروي خبراً عن أحد الرواة ثم يشك في هذا الخبر، ولكنه لا يأتي بدليل على صنع الخبر فليلقي العهدة فيه على الراوي، ولا نجد مثل هذا الأمر في رواية الأخبار وحدها ولكنا نجده أيضاً في روايته بعض الأشعار، فمرة كان لا يحقق ومرة كان يحقق وتحقيقه في

رواية بعض الأشعار مبني على أساس متين، على أساس لغة الشاعر ومذهبه وما شاكل هذين الأمرين، وكما كان يحقّق في الأخبار والأشعار فكذلك كان يحقق في الغناء.

إلا أنه كثيراً ما كان تدركه الحيرة والارتباك والتناقض في طائفة من رواياته كما وقع له هذا الأمر في أخبار مجنون بني عامر، وعلى كل حال كان لا يقبل الأخبار على علاتها فإذا وقع إليه خبر غريب حار في أمره في البدء ثم حاول الخروج من هذه الحيرة، وحسبه حيرته فإنها مفتاح للتحقيق ثم يجهد نفسه في التحصيل والتمييز فيهتدي إلى حل، سواء أكان الحلّ صحيحاً أم كان خطأ إنه على كل حال قد عني فيه بالتحقيق وهذا حسبه.

ومن أساليبه في التحقيق أنه يلجأ في بعض الأحيان إلى دراسة خط الشاعر فيستنتج من هذا الخط صحة الشعر أو انتحاله، وإضافة إلى هذه الأساليب في التحقيق كان في طائفة من الأحوال يرجع إلى المحاكمات العقلية في رواية ما يشك فيه.

لا نستطيع أن نقول إن تحقيقه كان متكاملاً في كل حين، ففي بعض الأوقات يقول مثلاً: إن هذا الخبر مصنوع، ولكنه لا يأتي فيه بدليل على صنعه، فيلقي العهدة فيه على راويه، وكما كان تحقيقه في بعض الأحيان غير متكامل في الأخبار، فكذلك كان في بعض الأحيان غير متكامل في الأشعار فهو يروي مثلاً بيتين لشاعر ثم ينسبهما إلى شاعر آخر بحسب ما سمعه في الرواية فنجد في ذلك التبرؤ من العهدة على قدر الإمكان، وإن كان في مثل هذا الأسلوب من التحقيق شيء من الضعف، لأن لكل شاعر لغة خاصة به، والمقابلات وحدها هي التي تظهر حقيقة الشعر، فإذا نسب شعر إلى شاعرين يعيشان في عصر

واحد لزم الأمر أن يقابل بين لغة الشاعرين وأسلوبهما وأبو الفرج لا يكلف نفسه شيئاً من ذلك في بعض الأوقات.

على أنه في بعض الأحيان يروي أبياتاً نسبت إلى عبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي في سلامة القيس فيقول: ليس ذلك له والشعر للوليد، وهو كثيراً ما يذكر سلمى هذه في شعره بأم سلام وبسلمى لأنه لم يكن يتصنع في شعره ولا يبالي بما يقوله منه، من ذلك قوله فيها:

*أمّ سلّام! لو لقيت من الوجـ ـد عشير الذي لقيت كفاك*

*فأثيبي بالوصل حباً عميـ ـداً وشفيقاً شجاه ما قد شجاك*

فهذا النوع من التحقيق لا غبار عليه، فهو يستند أولاً إلى لغة الشاعر، فالوليد يذكر أم سلاّم وسلمى في شعره والأبيات التي نسبت إلى غيره تحتوي على هذا الاسم، ثم إن روح الوليد ظاهرة على شعره فهو لا يتصنع ولا يبالي بما يقول.

قلت في فاتحة الكلام: الرواية والرواة في أدبنا مشكلة من مشكلات هذا الأدب، وأريد بهذه المشكلة الشك الذي دخل على الشعر خاصة، فإن بعض الرواة لم يحجموا عن نسبة شعر إلى من لم يقله، وقد يكون الراوية نفسه قائل هذا الشعر، فما الذي نستطيع أن نفعله في عصر بعدنا فيه عن عصر الرواية والرواة، عن عصر الزيادات والأكاذيب، فإذا كان الذين نبهوا على أكاذيب الرواة لم يبذلوا أيسر جهد في توضيح هذه الأكاذيب وهم معاصرون لأصحابها، يستطيعون التحقيق والتمييز، أفنستطيع اليوم أن نحقق ونميز، ما ذنبنا نحن في هذا العصر، وقد كان الرواة يختلفون، بعضهم يروي قصيدة لفلان، وبعضهم يرويها لغيره بأسرها، ما ذنبنا إذا كانوا يختلفون في تقديم الأبيات وتأخيرها وزيادة الأبيات ونقصانها، وفي تغيير الحروف في متن البيت وعجزه وصدره.

على أن المتقدمين قد نبهوا على التصحيف والتحريف وتبينوا وجه

الصواب في ذلك، حتى ذكروا ما أخذ على كتاب العين وعلى صاحب الصحاح في التصحيف، وقد وقع في التصحيف جماعة من الأجلاء من أئمة اللغة وأئمة الحديث حتى قال الإمام أحمد بن حنبل: ومن يعرى من الخطأ والتصحيف، ولكن إذا وقع الأئمة في الخطأ والتصحيف فقد وجدوا من ينبه على وقوعهم فيهما، وعلى ذكر مغالطهم، فلماذا لم يذكروا المغالط التي وقع فيها من كان يكذب من الرواة؟.

على أن التحقيق في الشعر المتحول ليس بعسير في عصر الرواة، فإن لكل شاعر لغة خاصة وألفاظاً كثيراً ما يلجأ إليها ويكررها في شعره على أن لكل عصر لغة خاصة بهذا العصر، فلو اعتنى نقاد الشعر في عصر الرواية والرواة بتمييز المنحول وردّ كل شعر إلى قائله لاستطاعوا في تلك الأزمان أن ينخلوا الشعر ويبينوا المنحول، ولو كان عندنا معجم يبيّن تاريخ الألفاظ، في أي عصر ظهر اللفظ الفلاني، وفي أي عصر حافظ على معناه أو انتقل من وجه إلى وجه، ولو كان عندنا معجم من هذا القبيل لوجدنا سبيلاً إلى التحقيق، ولهان علينا بعض الشيء رد كل شعر أو كل لفظ إلى تاريخه ولكنا لا نعلم ميلاد الألفاظ، وعلى كل حال أن زيادات الرواة قد دخلت ميراثنا الأدبي سواء أقبلنا ذلك أم لم نقبله.

وقد يقول قائل منا: إذا وقع الشعر مني موقعاً حسناً فسواء علي أقاله فلان أم قاله فلان، وقد قيل مثل هذا القول لخلف، قال له أحدهم، إذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته فلا أبالي ما قلته أنت فيه وأصحابك، فقال خلف: إذا أخذت درهماً فاستحسنته فقال لك الصراف: إنه ردىء، هل ينفعك استحسانك له.

هذا قول صحيح إذا أردنا حسن الشعر وقبحه، أما إذا أردنا صحة التاريخ الأدبي صحة النسبة وعدمها فلا وزن لهذا القول.

# في كتابه أمراء البيان

نحمد الله تعالى على أنّ في ديار الشام من لا ينسى المحسنين إليها في حياتهم، وفي مقدّمة هؤلاء المحسنين الأستاذ الرئيس محمد كرد علي، نضر الله عظامه فقد أصدر مجمعُ اللغة العربية بدمشق عدداً من أعداد مجلته في شهر المحرّم اشتمل على ما وضّحه فريق من الكتّاب والشعراء من خصائص كرد علي وفضله، ولا أرى بي حاجة في هذا المقام إلى التنبيه على هذه الخصائص وهذا الفضل، ولكني أرى أن يكون لكرد علي نصيب من الذكر في «المجلّة العربية» فإنها مجلّة العرب كافة، وكرد علي في أوائل من نوهوا بالعرب ورفعوا من ذكرهم، وتشهد بذلك محاضراته وكتبه وتاريخه.

لقد خطر ببالي في هذا المقال أن أتعرض لناحيةٍ واحدة من نواحي كرد علي لم أُطل الكلام عليها في كتابي: محمد كرد علي، خطر ببالي أن أنظر إلى الأستاذ الرئيس في كتابه الخالد: أمراء البيان، فقد ظهرت في هذا الكتاب وجوه كثيرة من براعته، ولا بأس قبل أن أبيّن هذه الوجوه بأن أشير إلى ما توخاه من كتابه، فقد ذكر في بضعة أسطر ما قصده من كتابة هذا الكتاب، قصد تصوير عشر صور حيّة في الجملة لعشرة من أمراء البيان، وصف عصورهم في السياسة والمدنية وحاول الإلماح إلى العوامل المهمّة في نشأتهم وحياتهم، وتوخّى تحليل أدبهم وعلمهم، وعرض لمواقع الإجادة في كلامهم، وغايته النبيلة في هذا كله

أن يكون في الرسم لطريقتهم عون على تمثّل أساليبهم في الرقة والجزالة، وقال في خاتمة السطور: «إن البيان العربي كالإسلام، لا يحيا إلا بالاستقاء من رؤوس عيونه الصافية».

إذا حاولت أن أطيل الكلام على النواحي التي خاض فيها وأجاد، فقد يمتدّ بي نفس الكلام، وإذا توخّيت الإيجاز فقد أبعد عن التنبيه على مواطن الإجادة، ولكني سأسلك مسلكاً وسطاً وما غايتي في هذا كله إلا أن تبقى صور من أحسنوا إلى العرب في نتائج خواطرهم ماثلة للأذهان، ثابتةً في العيون، فلا شيء أقتل للأمة من نسيان من وهبوا حياتهم وعبقريتهم لها، لا شيء أقتل للأمّة من طمس آثار من أشادوا بآثارها.

لم يفت كرد علي شيء في مقدمته البليغة من وصف البيان العربي، وما تقلّب فيه هذا البيان في مواضي عصوره حتّى بلغ العصر الذي نعيش فيه، وصفه في عهد الجاهلية وفي عهد الإسلام. وصف أسلوب القرآن والأسلوب الأوّل، ووصف تبدّل الأسلوب، ثم انتقل إلى الكلام على الأعاجم والعربية وعلى الأسلوب المتكلّف، حتّى أنهى كلامه كلّه بالكلام على إحياء الأسلوب القديم في عصرنا على يد الإمام محمد عبده بمصر وأحمد فارس الشدياق بالشام، وأظن أنه لا يستطيع الخوض في مثل هذا الموضوع الدقيق إلا من طال نظره في التاريخ، وكثر تعمقه في انتقال البيان من طور إلى طور في خلال هذا التاريخ، وما نقص كرد علي شيء من طول النظر والتعمّق حتى كان الموضوع الذي عالجه لا يفتقر إلى توضيح.

بقي عليَّ بعد كلّ ما تقدّم أن أشير ولو إشارة خفيفة إلى بعض تحليله، ولكن المقام لا يتسع للإشارة إلى كل تحليل؛ وحسبي الاقتصار

على نماذج منه.

لقد صدّر كرد علي كلامه على كل واحدٍ من العشرة الذين وقع اختياره عليهم بالكلام على عصره، ولخص روح هذا العصر تلخيصاً يجعله بمرأى من العيون بحيث يحيط القارئ بأوضح خصائصهم، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الكلام على ترجمة من اختار نماذج من أقواله على قدر ما يسمح به الإمكان، فإذا فرغ من هذا كله تعرّض لبلاغته وأسلوبه، وختم فصله بتدوين بعض نماذج من أسلوبه.

ليس المهم أن نخوض في الكلام على رأيه في كل واحدٍ من العشرة المختارين، فإن أمراً مثل هذا الأمر قد يطول، ولكن حسبنا أن نشير إلى طائفة من تحليله لنعلم صواب رأيه في هذا التحليل.

من أمراء البيان الذين أطال الكلام عليهم، على وصف أخلاقهم وحياتهم، وعلى وصف ما يتعلق بهذه الأخلاق وبهذه الحياة: ابن المقفّع، والجاحظ، ومن هذه الإطالة يتبيّن لنا مقدار تعظيمه لهذين الإمامين، وإنزالهما المنزلة الرفيعة في أدبنا، ولا تغني الإشارة الخفيفة إلى ذلك عن الرجوع إلى ما تبسَّط فيه، ووضّحه أكمل توضيح. ففي كلامه على ابن المقفع قال: «إن من نشأ في سعة من العيش، وأخذ من عظماء في العلوم والآداب، وعاش زمناً بين كبار في الإمارة والسياسة لا بدّ أن تبقي بيئته الراقية في نفسه من الصفات ما يسمو به إلى الفضائل والمكارم».

من هذا الكلام يتبيّن لنا كيف يجعل الأستاذ الرئيس كرد علي صلةً قويّة بين البيئة وبين من ينشأ في هذه البيئة، كيف يجعل للبيئة آثاراً في من نشأ في ظلالها. قد يكون هذا الاستشهاد الذي استشهد به أقلّ الاستشهادات شأناً في تراجم كرد علي، ولكن المجال لا يتّسع للإتيان

على كل موطن من المواطن التي أجاد فيها وبرَّز، وهو لم يتوخَّ في كل هذه الإجادة وهذا التبريز إلا النفع والفائدة، النفع في فهم الحياة والمجتمع والفائدة في الكشف عن البلاغة، والانسحاب على أذيال البلغاء على نحو ما ذكره في خاتمة كلامه على ابن المقفع.

لقد نحا هذا النحو في مقدمة تراجمه كلها، فكان يتبسَّط إذا أعانته المادّة على التبسّط، ويوجز إذا لم يجدْ بُدًّا من هذا الإيجاز، فما تشابهت حياة أمراء البيان العشرة التشابه كله، وأعني بذلك لم تتشابه مادّة ترجمتهم، ففي بعض التراجم موادّ قليلة وفي بعضها موادّ كافية.

وإذا كان في كل ما تقدم في هذا المقال شيء من الإيجاز في الكلام على النهج الذي نهجه الأستاذ الرئيس في كتابه: أمراء البيان، فلا يجوز أن نعمد لهذا الإيجاز في كلامه على الجاحظ.

لقد وصف عصر الجاحظ، ووصف نشأته ولغته ومذهبه وأخلاقه وأدبه وبلاغته وفنّه وعلمه وبحثه وسياسته ودهاءه وتهكمه ومجده، وصف هذا كله وصفاً ناطقاً لا مزيد عليه، وإذا جوّد في هذا الوصف التجويد كلّه فقد أجد في هذا التجويد دليلاً قوياً على امتزاج نفسه بنفس الجاحظ، فقد تغلغل في هذه النفس، ووقف على كل سر من أسرارها، وعلى كل فضيلة من فضائلها، وتغلغل في عقل الجاحظ فأحاط بكل صفة من صفات هذا العقل الجبّار، وتعمّق في فكر الجاحظ فكشف عن كل مزيّة من مزايا هذا الفكر، وذاق أدب الجاحظ وبلاغته فلم يفته شيء من محاسن هذا الأدب وهذه البلاغة، وإن كان لي أن ألخّص عمل كرد علي في هذا كله، فإني أقول: إن الجاحظ في تحليل كرد علي كأنه نبش من مدفنه، وكأنه يعيش بين ظهرانينا في هذا العصر، فنكاد نكشف عن كل دقيقٍ من نفسه وعقله وفكره وأدبه، والخلاصة كأنّا نرى الجاحظ

بعيوننا، نراه في كل جزءٍ من عبقريته، وما أظن أن عملاً مثل هذا العمل قليل.

إذا كان الأستاذ الرئيس محمد كرد علي قد توخّى في كتابه الخالد «أمراء البيان» أن يحمل أدباء هذا العصر على الرجوع إلى بلاغة المتقدمين، والغرف من بحر هذه البلاغة حتى تكون بلاغة العرب متصلة الأصول، لم تفسد مادّتها ولم تضعف صورها فليطمئنّ باله، فقد بلغ في كتابه ما أراد بلوغه، فلينعم ببقاء ذكره، ما بقي رجل في العالمين.

# الجاحظ في كتاب البخلاء

هذا ما عرضه الجاحظ في كتاب البخلاء، عرض نوادر البخلاء واحتجاج الأشحاء وما يجوز من ذلك في باب الهزل، وما يجوز منه في باب الجد، فلم يغفل عن شيء من طرائف حججهم ولطائف حيلهم وعجائب نوادرهم. فقد تغلغل في بواطن هذه الطبقة من الناس ووقف على دفاعهم عن البخل، وسمع ما يدور على ألسنتهم من ميلهم إلى البخل ومن نسبتهم العقل إلى البخلاء والجهل إلى المسرفين، ومهما يطل الكلام على نوادر البخلاء فلا غنى لنا عن الرجوع إلى مقدمته البليغة التي حوت كل شيء يتصل بهذا الباب.

لقد كتب في كتابه أحاديث كثيرة مضافة إلى أربابها وأحاديث كثيرة غير مضافة إلى أربابها إما بالخوف منهم وإما بالإكرام لهم، كان يزور البخلاء في منازلهم وقد وقف في زيارته على أقوالهم وحججهم، وإذا لم يزرهم كان يسأل أصحابه عن أحاديثهم، وإذا لم يزر البخلاء ولم يسأل أصحابه عن أحاديثهم نقل أقوال غيره في هذا الباب أو سمع من مشايخه ما يقولونه في هذا المعنى حتى لا يفوته شيء وحتى يحيط بكل شيء.

كان الجاحظ شديد الولع بالبخلاء وكان كثير الضحك من أمورهم، فقد قال في وصفه لأحدهم «إنه يجزع من الإعطاء وهو عدوه فأما الاحد فهو ضالته وأمنيته، فلو أعطي أفاعي سجستان وثعابين مصر

وحيات الأهواز لأخذها». ومن شغفه بأخبار البخلاء وأعاجيبهم ونوادرهم كان يناظرهم ويسمع حججهم ويدلي بحججه معهم، وهذا كله يدل على فرط ميله إلى الكشف عن أسرارهم وخصائصهم ومعرفة طرائف بخلهم وبدائع حيلهم، وقد كان يدخل معهم في المناظرات والمجادلات ويدلهم عل صواب الأمور فكانوا يردون عليه ويخطئونه ويقولون له: «خطأ العاقل أبداً يكون عظيماً وإن كان في العذر قليلاً، لأنه إذا أخطأ أخطأ بتفقه وإحكام فعلى قدر التفكير والتكلف يبعد من الرشاد ويذهب عن سبيل الصواب»، فكما كان الجاحظ يجد لذة في الإحاطة بأخبار البخلاء فكذلك كان يجد مثل هذه اللذة في مناظرتهم ومجادلتهم يغضب من ردهم ونسبته إلى الخطأ في أحكامه وآرائه.

ولست أشك في أنه في ميله إلى زيارة البخلاء في منازلهم كان يحاول في هذا الميل الترفيه عن نفسه، فقد كان يشعر بالسرور في سماع نوادرهم، فكان هذا السرور يخفف من تعبه في طول نظره في الكتب وملء عقله من حكم هذه الكتب وطرائفها فضلاً عن محاولته ـ في ارتياد منازل أهل البخل والشح ـ الوقوف على ظواهرهم وبواطنهم فله في ذلك غايتان: غاية في نفسه وهي إدخال السرور عليها، وغاية في القراء وهي إدخال مثل هذا السرور على نفوسهم وذلك بتبين حجج البخلاء الطريفة وتعرف حيلهم اللطيفة واستفادة نوادرهم العجيبة.

والغريب أنه على الرغم من بلاغة الجاحظ ومن قدرته على البيان ومن براعته في التصوير كان يمر بأمور في منازل الأشحَّاء يجد في نفسه أنه لم يصورها حق التصوير، فكان يرى أن أمثال هذه الأمور إنما تطيب جداً إذا رآها الإنسان بعينه، فإنه يعتقد أن كتابه لا يصور لنا كل شيء ولا يأتي لنا على كنهه وعلى حدوده وحقائقه، أفرأينا تواضعاً

أبلغ من هذا التواضع؟ فالجاحظ الذي ملك اللغة بحذافيرها وهي مادة الوصف والتصوير وبلغ من حسن البيان المبالغ، يعترف بأنه عاجز في بعض الأحوال عن تصوير بعض الأمور، ورؤية هذه الأمور بالعين أدل على كنهها.

ولكنه إذا مر ببعض أمور لم يصورها حق التصوير، فقد كان في كثير من الأمور يحلل طبائع البخلاء، من ذلك تحليله لاشتراء بعضهم اللحم في الصيف مثلاً، فقد كان يمر بأحاديث البخلاء التي تدور على ألسن طائفة منهم فيحللها تحليلاً فلسفياً، ويستنبط العلل والأسباب فهو لا يأخذ الأحاديث على ظواهرها وإنما ينظر في بواطنها فيرد ظواهر البخل إلى أسبابها.

وقد نجد أنه مع ميله إلى الضحك في منازل البخلاء كان يتأدب في طائفة من الأحوال فإذا رأى من أحدهم في منزله شيئاً يستحق أن يعاتب عليه كان يترك الكلام ويرى أن هذا الترك أفضل، وهذا كله يدل على حكمته، فهو يضحك إذا لزم الضحك ويسكت إذا مر بشيء مستغرب، وسكوته من باب الحكمة والعقل لأن موعظة البخيل في أمثال هذه المواضع لغو.

ومن أدبه وحكمته في هذا السبيل أنه إذا ذكر أخبار البخلاء وأعاجيبهم ونوادرهم كان لا يسمي المتهتكين ولا غيرهم من المستورين في شيء، فكان لا يسمي أصحابه لحرمتهم وواجب حقهم، وكان لا يسمي بعض البخلاء ليستر الله عليهم وإنما كان يسمي من خرج من هاتين الحالين، إلا أنه كان يسمي صاحبه إذا كان هذا الصاحب ممن يمازح وإذا كان يتظرف ببخله، على أي شيء يدل هذا كله؟ إنه يدل على عظمة عقله وشدة حكمته وأدبه حتى لا يتعب رأسه بمعاداة أصحابه أو يحملهم على معاتبته.

ولكن من هم البخلاء الذين جمع أخبارهم، إنه يحكي عن البخلاء الذين جمعوا بين اليسر والبخل وبين خصب البلاد وعيش أهل الجدب، فأما من يضيِّق على نفسه لأنه لا يعرف إلا الضيق فليس سبيله سبيل القوم، فهو لا يتعرض لأخبار كل بخيل وإنما يتعرض لطبقة معينة وهي طبقة الأغنياء الموسرين الذين يضيِّقون على أنفسهم وسواء عليه أسمع من الرجال أحاديث البخلاء أم سمعها من النساء، إن الذي يهمه إنما هو أن يسمع أحاديث من تعرف الأمور، معنى هذا إنه مهتم بالأحاديث نفسها، لا يبالي بمن حدثه إياها، أكانوا من الرجال أم كانوا من النساء.

بدأ بأهل خراسان لإكثار الناس في أهل خراسان، وخص بذلك أهل (مرو) بقدر ما خصوا به، ولا يسعنا في هذا المقام الإتيان على نوادرهم في البخل، فلا بد من الرجوع إلى أخبارهم حتى نعرف ما خصوا به في هذا الباب، فقد كان بعضهم يخجلون الضيف ويلقونه في حيرة من أمره حتى لا يأكل وبذلك يسلمون من شر أكله.

وإذا فرغ من قصص أهل خراسان تعرض لقصص المسجديين من أهل البصرة فلم يذهب عنه شيء في أسباب تقارب البخلاء وتواصلهم.

وبعد الكلام على بخلاء أهل خراسان وعلى المسجديين من أهل البصرة ينتقل إلى قصص الأفراد من البخلاء سواء أكانوا من الرجال أم كانوا من النساء.

لا شك في أن جملة الأسباب التي حملت الجاحظ على تأليف كتاب البخلاء ميله إلى الضحك والإضحاك، ومن ميله إلى الضحك قد يستطرد في مقدمته إلى فلسفة الضحك والبكاء، وخوضه في هذا الاستطراد خوض الفلاسفة الذين يبحثون عن الضحك وليس هذا الأمر

بمستغرب فقد جرى على أسلوبه ولم ينحرف عنه، أما ميله إلى الضحك فحسبنا أن نعرف أنه طعن في السن ولم يزل يشكو من الفالج طرفاً وما زال الغليل يسرع إليه وكان ليس بصاحب عشاء، فبات عند أحد أصحابه في ليلة برد ومطر وعنده لبأ (وهو أول اللبن) لم ير الناس مثله وتمر ناهيك به جودة، وجاء صاحبها بجام لبأ وطبق تمر فأخذ يبين للجاحظ مضرة الأكل ومضرة عدم الأكل حتى يحمله على الحيرة والتردد وعلى أن يستغني عن الأكل بعد هذه الحيرة. وعرف الجاحظ أن هذا كله إنما لجأ إليه صاحبه لفرط بخله، فلم يبال الجاحظ بذلك فأكل اللبأ جميعاً ليغيظ صاحبه ولم يضحك كضحكه تلك الليلة وما هضم الأكل إلا الضحك والنشاط والسرور، إن مثل هذا الخبر يدلنا على مرح الجاحظ في مجالس البخلاء فقد أكل ما يضره ولم يهتم بذلك، فحسبه أن يضحك وأن يهضم الضحك ما أكل، ولا ريب في أن ميل الجاحظ إلى المرح والنشاط والضحك قد زاد في طول حياته على أنه كان يعنى بصحته كل العناية فإذا بكر البرد مثلاً في تشرين الأول (أكتوبر) لبس كساء يناسب هذا البرد فلم يكن يستخف بصحته، أجل لقد عاش كثيراً وذاق حلاوة الحياة فقد كان ينظر إلى الحياة من محاسن وجهها ولم ينظر إليها من ناحية الظلمات.

هذا بعض ما اهتديت إليه من خصائص الجاحظ في كتاب البخلاء، إنه لم يترك أمراً من أمورهم إلا ذكره فقد أشار إلى طعامهم على اختلاف ألوانه وإلى شرابهم وإلى لباسهم وإلى مسكنهم، وكان في كل حال من هذه الأحوال يفيض في التفاصيل، وأعني بهذه التفاصيل حجج البخلاء في الدفاع عن بخلهم والوصف لمجامع أمورهم، ولست أدري أفي العالم قديمة وحديثة أمة يشبه بخلاؤها هذه الطبقة من البخلاء التي

صورها الجاحظ، وهل في بخلاء هذه الأمة من يستطيع أن يدافع عن بخله هذا الدفاع الذي دافعه بخلاء الجاحظ؟ ولست أدري أفي كتّاب العالم كاتب يستطيع أن يتجرد لوصف أنواع البخل تجرد الجاحظ، فقد يأتي كاتب فيصف حركات البخيل في بخله أو يصف ما يظهر على وجهه في حركة من هذه الحركات أو يصف غير ذلك، أما الجاحظ فقد قام وصفه لحب البخلاء للبخل ودفاعهم عنه مقام كل تحليل، فإنه حين يتكلم على دفاعهم عن خبزهم أو مائهم أو شرابهم أو طعامهم أو لباسهم أو مسكنهم أو غير ذلك يدخل في هذا الدفاع مدخلاً يغني عن كل تحليل، فإذا سمع كلام البخلاء بأذنه أو حدثه به أصحابه ومشايخه خلا إلى نفسه في منزله واستعان ببيانها على طرح هذا الكلام وهذه الأحاديث على أوراق، فهو إمام البلغاء وسيد الكتاب في قديم الدهر وحديثه.

***مجلة كلية الآداب في ليبيا***

***١٩٧٥***

# الجيش في شعر المتنبي

ما أظن أن شاعراً من شعراء العرب، أدرك الغاية من الجيش حق الإدراك مثل المتنبي، فإنه لما قال في إحدى قصائده:

«بالجيش تمتنع السادات كلهم»

وضّح الغاية التي من أجلها أنشئ الجيش أتم توضيح، وهي حماية الوطن ، ولهذا فإنا نجد الأمم في عصرنا تقدس جيوشها لأنها حصن البلاد الحصين، ويكاد يكون المتنبي أوصف الشعراء للجيش، ولا غرابة في ذلك، فقد كان شاعر ملك همه الأكبر النصر، لم تلهه عن هذا النصر الأوتار والنغم، هم سيف الدولة أن يدفع عن ديار الشام وله في ذلك الفضل الأعظم، ولولاه لتغلغلت الروم إلى الشام، فكما رد صلاح الدين الصليبيين في عصره عن هذه البلاد فكذلك رد سيف الدولة في القرن الرابع الروم عنها، ولم يردهم إلا بفضل جيشه، وقد كان شديد العناية بالجيش، يصفّه ويعرضه من حين إلى آخر، وقد وصف المتنبي هذا الجيش في مواطن كثيرة من شعره، والذي أعانه على هذا الوصف أنه كان يصحب سيف الدولة في بعض حروبه ومغازيه، فكان يراها بعينيه ويسمع ضوضاءها بأذنيه، فهو أقدر الشعراء على وصف المعارك.

ما هي خصائص الجيش الذي وصفه المتنبي؟

لقد تكلم رجال التاريخ على حروب سيف الدولة، ولكن كلامهم يختلف عن

كلام الشعراء فإن الشعراء إذا وصفوا لنا هذه الحروب، عرضوا علينا مسافك دمائها ومناثر عظامها حتى كأنّا نشهد هذه الدماء وهي تجري على الأرض، ونرى هذه العظام وهي تنثر من بين اللحوم. وإذا أحببنا أن نتتبع حروب العرب في القديم، وندرس خصائص جيوشها، فلا مندوحة لنا عن الرجوع إلى الشعراء الذين صوروا تلك الحروب والجيوش، لأنا قد نجد في أضعاف شعرهم مالا نجده في أضعاف التاريخ. يهمنا أن نعرف قبل كل شيء أدوات الجيش في عصر سيف الدولة، وقد نجد في شعر المتنبي وصفاً لبعض هذه الأدوات، وأهمها على ما اتصل بنا علمه الخيل والرماح والسيوف والأقواس والمجانيق والرايات، وقد كان للخيل منزلة عظيمة، فإنها، في حروب تلك الأيام بمنزلة الآلات الميكانيكية في يومنا هذا، فقد كانت الخيل في حروب سيف الدولة تجري في السهول وتسبح في الأنهار وتصعّد في الجبال، ولهذا كانوا يختارونها من أصل كريم، ويلبسونها أشياء مثل الدروع اسمها التجافيف، ويسترون وجوهها بالحديد، فالتجافيف عليها بمثابة الدروع والحديد بمثابة اللثام، أما فتيان الجيش فد عرفنا من ملابسهم في الحروب المفاضة وهي الدرع الواسعة، والتريكة، وهي البيضة من الحديد، وتسمى أيضاً الحبيكة وهي تلبس على الرأس،وعرفنا أن السلاح كان مسموماً في بعض الأحوال.

أما جيش الروم فلم نعرف عنه إلا ترتيبه، فقد كان يرتب على الوجه المشهور: الجناحان وهما الميسرة والميمنة من القلب.

وقد اطلعت في دار الآثار في دمشق على تمثال صغير، يمثل فارساً قيل إنه من فرسان جيش سيف الدولة، ولكن سحنته غير عربية، فهي تشبه سحنات الترك، فإذا صح هذا فقد نستنتج من ذلك أن جيش سيف الدولة كان فيه فرسان من الترك.

كانت للحروب في عصر سيف الدولة طبيعة دينيه فقد كان الرهبان

يتقدمون في بعض الأحيان جيش الروم والصلبان على صدورهم، وكان في هذا الجيش رجال من الصقالب والبلغار ومن كل أمة ولسان، وهذا ما أشار إليه المتنبي في قوله:

***تجمّع فيه كل لسن وأمة  فما يُفهم الحدّاث إلا التراجم!***

وعلى الرغم من أن طبيعة الحروب كانت دينية فقد كانت النزعة الغالبة على شعر المتنبي قومية، فكان يتغنى بالعرب وبخيل العرب وبعمائم العرب.

فإذا عرفنا هذه الخصائص كلها فلا بأس بأن نعرف خطة سيف الدولة في الحروب، فقد كانت خطته الاستمرار في الزحف، كأن جيشه صاعقة تنقض على العدو، وقد أشار المتنبي إلى ذلك في كثير من شعره:

***قاد المقانب أقصى شربها نهل  على الشكيم، وأدنى سيرها سرع***

***لا يعتقي بلد مسراه عن بلد  كالموت ليس له ريّ ولا شبع***

من هذا الوصف يتبين لنا أن سيف الدولة كان يقود الخيل فلا تشرب إلا مرة وهي ملجمة، ولا تسير إلا وهي مسرعة، فأقل سيرها الإسراع، ولا يعوق فتح بلد من بلدان العدو عن المسير إلى غيره، ولم يحب المتنبي أن يعرض علينا صورة هذا الزحف جامدة، وإنما أنطقها فشبه سيف الدولة بالموت الذي يعمّ، فلا يروى من الدماء ولا يشبع من العظام، وإذا جاز لي أن أخوض في موضوع لا علم لي به فإني أرى استمرار سيف الدولة في زحفه في الحروب، فالذي نعلمه أن الألمان كان همهم في حربهم الأخيرة وفي الحرب التي قبلها أن يزحفوا وأن يفتحوا البلدان وكأن الغاية من ذلك إدخال الرعب على قلوب العدو، والطمأنينة والثقة على قلوب الشعب، وهكذا كانت خطة سيف الدولة.

وقد عرض المتنبي صوراً كثيرة من هذا الزحف، من جملتها الصورة الآتية:

***له عسكرا خيل وطير إذا رمى  بها عسكرا لم يبق إلا جماجمه***

***اجلّتها من كل طاغ ثيابه  وموطئها من كل باغ ملاغمه***

فلسيف الدولة في زحفه عسكران: أحدهما خيله، والثاني الطير التي تصحبه إلى الحرب لتقع على القتلى، فعسكر الخيل يقتل العدو، وعسكر الطير يأكل لحومهم، وما أشبه هذه الطير التي كانت تطير فوق جيش سيف الدولة بالطيارات التي تطير فوق جيوش هذا العصر، وهكذا نجد المتنبي قد خلق من ألف سنة صورة الطيارات في الحروب.

ولكن جيش سيف الدولة لم يزحف زحفه هذا إلا وهو كثيف، وقد صوّر المتنبي هذه الكثافة مرات كثيرة، منها قوله:

***والباعث الجيش قد غالت عجاجته  ضوء النهار فصار الظهر كالطفل***

***الجوَ أضيق ما لاقاه ساطعها  ومقلة الشمس فيه أحيرُ المقل***

فسيف الدولة كان يبعث الجيش الكثيف الذي يستر ضوء الشمس بكثرة الغبار حتى يصير الظهر مثل آخر النهار، وهاتان الخطتان: الزحف الشديد وكثافة الجيش متلازمتان، لأن العدو إذا رأى زحف الجيش وكثافته دب الرعب في قلوبه.

ولم يخش هذا الجيش العدو وحده وإنما خشيتْه السماء أيضاً:

***كأن نجوم الليل خافت مغاره  فمدت عليها من عجاجته حجبا***

الاستمرار في الزحف وكثافة الجيش: هاتان هما الصفتان الغالبتان على جيش سيف الدولة وقد تضاف إليهما صفة ثالثة قد تكون مناسبة لحروب تلك العصور، أما هذه الصفة فهي إحراق كل موضع يمر عله

جيش سيف الدولة، وقتل أهله حتى تخرب ديارهم فلا يبقى منها إلا الآثار:

***تسايرها النيران في كل منزل  به القوم صرعى والديار طلولُ***

ولم يك جيش الروم أقل كثافة من جيش سيف الدولة فإن المتنبي وصف هذه الكثافة فقال:

***خميس بشرق الأرض والغرب زحفه  وفي أذن الجوزاء منه زمازم***

ولكن جيش الروم على كثافته كان ضعيف القلب، فكان لجيش سيف الدولة في قلوب العدو رهبة لا يعدلها رهبة وقد استطاع المتنبي أن يبقي لنا في شعره صورة تدل على هذه الرهبة لما قال سيف الدولة:

***وإذا حساولَتْ طعانَك خيلٌ  أبصرتَ أذرع القنا أميالاً***

***بسنط الرعب في اليمين يميناً  فتولوا وفي الشمال شمالا***

***ينفض الروع أيديا ليس تدري  أسيوفاً حملن أم أغلالا***

فالروع والرعب والخوف كل هذا لا يكاد يفارق قلوب الروم في حروب سيف الدولة:

هذه طائفة من خصائص جيش ملك من ملوك العرب لم يكن فيهم أغزى منه، فقد كان له غزوتان في كل سنة، إحداهما في الربيع والأخرى في الخريف، حتى إنه قد جمع من نفض الغبار الذي يجتمع عليه في غزواته شيئاً وعمله لبنة بقدر الكف وأوصى أن يوضع خده عليها في لحده، حتى ملّ الناس في زمن من أزمانه الحروب والغزوات والسفر، فكان يستفزهم، فلم ينفر أحد!

***مجلة الجندي***

***١٩٥٠***

# النزعة العربية
# في شعر حافظ إبراهيم

كلمة ممثل سورية في مهرجان حافظ إبراهيم في الإسكندرية الأستاذ السيد شفيق جبري عميد كلية الآداب في الجامعة السورية.

قدم حافظ إبراهيم دمشق الشام سنة ١٩٢٩ فاحتفى به المجمع العلمي العربي وعلق على صدره وسام الاستحقاق السوري وهو ينشد هذين البيتين:

***شكرت جميل صنعكم بدمي ... ودمع العين مقياس الشعور***

***لأول مرّة قد ذاق جفني ... على ما ذاقه دمع السرور***

وقال الشعراء فيه قصائدهم وأذكر أنّ من الشعر الذي قيل فيه:

***أرى رجالاً على الأهرام ديدنهم ... حل الأواصر من طيّ وشيبان***

***تنكبوا عن صميم العُرب واعتصموا ... بحبل رمسيس أحدانا بأُحدان***

***أعيذها خطرات ملؤها مضض ... أن تهدم الشرق أركاناً بأركان***

مضى على هذا الشعر ثمانية وعشرون عاماً فتبدّلت الأرض غير الأرض والسموات.

من شهرين سألتني السفارة المصرية في دمشق أن أذكر لها عنوان الموضوع الذي وقع عليه اختياري في مهرجان حافظ إبراهيم

وعرضت عليّ الموضوعات التي اختارها أساتذة مصر في هذا المهرجان فقلت للذي كان يفاوضني في هذا الأمر: لم يبق لي فضلاء مصر أفقاً أجول فيه، فهم لم يغادروا من متردّم، فقال لي: عليك النزعة العربية في شعر حافظ، فوقع هذا الاقتراح مني موقعاً حسناً وأنا لم أنظر إليه لأنه نجّاني من ضيق ولكني نظرت إليه من وجه آخر، قابلت بين هذا الشعر الذي قيل في حافظ من ثمانية وعشرين عاماً في دمشق وفيه عتاب مصر بسبب زهدها في القومية العربية وبين قول السفارة المصرية: عليك النزعة العربية في شعر حافظ وفيه اهتمام بهذه القومية، قابلت بين هاتين الفكرتين، فعجبت من تغير العصور، عصر تكاد مصر فيه تزهد في النزعة العربية وعصر تهبّ فيه مصر لتذكير بلاد العرب بهذه النزعة والحض على الأخذ بأسبابها والاستمساك بالعروة الوثقى من القومية العربية والإيمان بقوة هذه القومية وبمحاسن آثارها في نزاع العالم ولا أدلّ على هذه القوة من تضافر العرب يوم بور سعيد وما أدّى إليه هذا التضافر من نصرٍ مبين.

فهل ارتجلت فكرة القومية العربية ارتجالاً في مصر وفي شعر حافظ إبراهيم، ليس في الطبيعة انقلابات تفاجئ العالم مفاجأة فما حدث على وجه الأرض من الانقلابات في خلال العصور إنما كان نتائج علل بطيئة في سرها متئدة في عملها فقد تتحول مجاري البحار وقد ينحدر الجليد من أعاليه إلى السهول دون أن نشعر بهيجان البحار وجماح الجليد وما يجري في الطبيعة يجري في المجتمع ولكن على تفاوت بين سرعة وسرعة.

لم ترتجل القومية العربية في مصر وفي شعر حافظ ارتجالاً وإذا رجعنا إلى طائفة من أئمة الفكر والشعر وجدنا أنهم بعثوا في أثناء

القرن التاسع عشر والقرن العشرين هذه القومية من مدافنها وتغنوا بحضارة العرب ودلّوا على روائع آثارها وعلّموا الناس أصول الحرية والاستقلال، إذا رجعنا إلى هذه الطائفة من الكتّاب والشعراء رأينا أن كتاباتهم وقصائدهم مملوءة بالقومية. فلم تصل بلاد العرب فجأة إلى حريتها واستقلالها في هذه الأيام وإنما مُهِّد لهذه الحرية وهذا الاستقلال ردحاً من الدهر حتى اختمرت فكرة القومية في الأذهان ونضج الشعور بها في القلوب، فلمّا أمكنت الفرص اغتنمتها بلاد العرب ولم تضع مناهزها.

فلنبادر بعد هذه المقدّمة الوجيزة إلى التمتع من نزعة حافظ العربية.

لست أحاول أن أضيع في شعر حافظ بين نزعاته العربية المشتتة في تضاعيف هذا الشعر وإنما حسبي أن اجتزئ بواحدة من هذه النزعات يكاد يظهر فيها الصفاء في أوضح مظاهره:

***واهاً على دولةٍ بالأمس قد ملأت  جوانب الشرق رغداً من أياديها***
***كم ظلّلتها وحاطتها بأجنحة  عن أعين الدهر قد كانت تواريها***
***من العناية قد ريشت قوادمها  ومن صميم التقى ريشت خوافيها***
***والله ما غالها قِدْماً وكاد لها  واجتثّ دوحتها إلّا مواليها***
***لو أنها في صميم العرب قد بقيت  لما نعاها على الأيام ناعيها***
***يا ليتهم سمعوا ما قاله عمر  والروح قد بلغت منه تراقيها***
***لا تكثروا من مواليكم فإن لهم  مطامعاً بسمات الضعف تخفيها***

نلمح في هذه الأبيات القوية إخلاص حافظ للعرب حبَّه، فكأنه يريدها دولة عربية لا أثر لأعجمي فيها لأنه يعلم أن نكبة العرب في كل دهر، في قديمه وحديثه كانت على أيدي الأعاجم، ففي القديم قتلوا عمر وكانوا

سببا في تهديم بني امية وإضعاف بن العباس وفي الحديث وقفوا في سبيل حرية العرب واستقلالهم وما زالوا يقفون هذا الموقف نفسه.

لا أحاول أن أضيع بين هذه النزعات الصافية الخالصة وإنما أحبس قولي على نزعتين منهما وكأنهما زينة شعر حافظ العربي ورونق قلبه العربي وأريد بهما تغنيه بوحدة العرب وبلغة العرب، ففي هاتين النزعتين يظهر حافظ في حقيقته، لا يؤثر فيهما بعض دمه التركي، وإنما نفض عنه كل أثر غير أثر العرب، وظهر في روحه العربية وقلبه العربي وشعوره العربي.

فطن حافظ إبراهيم إلى منزلة الشعر في جمع الأهواء والتأليف بين القلوب فاستخدم شعره في هذه الغاية النبيلة.

لقد وقع بعض الجفاء بين المصريين وبين طائفة من الشاميين المقيمين بمصر، وأشار إلى هذا الجفاء أحد الكتّاب الذين عاشوا في مصر في أوائل القرن العشرين وأيّد ذلك قول حافظ:

***لولا رجال تغالوا في سياستهم  منّا ومنهم لما لمنا ولا عتبوا***

فعزم جماعة من السورين على تكريم حافظ في فندق «شبرد» فعمل حافظ قصيدته: سورية ومصر وأنشدها سنة ١٩٠٨.

لم يقبع حافظ في مصريته الضيقة فقد كان يعلم أن هذه اللغة التي ينطق بها ثمانون مليون عربي جديرة بأن يستخدمها هو وأمثاله من الشعراء في جمع هذه الملايين المتناثرة على بقاع واحدة من الأرض. بدأ بالتأليف بين مصر والشام لأنه كان يعلم حق العلم كثرة التشابه بينهما. فقد كانت أقدارهما على نحو ما ذكره أحد المؤرخين «واحدة في عهد الدول الإسلامية وحياتهما الاجتماعية متجانسة. هكذا كانت مصر والشام في دولة الراشدين والدولة الأموية فالعباسية فالطولونية فالفاطمية

فالأيوبية، فدولة الأتراك والمماليك، فدولة الجراكسة، فدولة الترك العثمانية، وكانت مصر منبعث حضارة في معظم أزمانها كما كانت في العقود الأخيرة من حياتها ملجأ ومعتصماً للأحرار ومباءة ممتازة للعلم الإسلامي تأخذ عنها الأقطار والأمصار».

عرف حافظ إبراهيم هذا كله وعرف أن الشعر إنما هو أقدر الصيغ على نزع البغضاء من الصدور وإلقاء المحبة في القلوب فقال قصيدته:

***لمصر أم لربوع الشام تنتسب  هنا العلا وهناك المجد والحسب***

وأشار فيها إلى اشتراك هذين القطرين العظيمين في تاريخ واحد وآلام واحدة وحب واحد:

***إذا ألمّت بوادي النيل نازلة  باتت لها راسيات الشام تضطرب***

***وإن دعا في ثرى الأهرام ذو ألم  أجابه في ذرا لبنان منتحب***

***لو أخلص النيل والأردنّ ودّهما  تصافحت منهما الأمواه والعشب***

ولم يبالغ حافظ إبراهيم في تصوير هذه الصلة المستحكمة بين مصر والشام من قديم الدهر. وإذا أردنا برهاناً على هذه الصلة الروحية وجدنا في اضطراب الشام يوم بور سعيد الأخير.

وكأنّ حافظاً لم تنقع غليله هذه النفحة السماوية التي ألف بها بين مصر والشام. فأحبّ أن يطلع على العرب بنفحة أوسع مدى وأبعد مذهباً أوحَتْها إليه ديار الشام لما قدمها بعد واحد وعشرين عاماً، فماذا ذكرته الشام، لقد ذكرته بني أميّة وما اشتملت عليه خلافتهم من المحامد التي لا تبلى سجيس الليالي:

***أبت أميّة أن تفنى محامدها  على المدى وأبى أبناء غسّان***

***فمن غطارفة في جلّق نجب  ومن غطارفة في أرض حوران***

عـافوا المذلـة فـي الدنيا فعندهـم عزُّ الحياة وعـزّ المـوت سـيّان
لا يصـبرون علـى ضيـم يحاولـه باغ من الإنس أو طاغ من الجان

فكما اتسع أفق شوقي في نزعته العربية بعد زيارته الأندلس وملء خاطره من آثار العرب في هذه الجنة الخضراء، فكذلك اتسع أفق حافظ في هذه النزعة بعد زيارته الشام لقد أوحت الأندلس إلى شوقي شعراً تأججت القومية في قلائده فقال في دمشق قصيدته الخالدة:

بنـو أميـة للأنبـاء مـا فتحـوا وللأحاديث ما سادوا وما دانوا
كانوا ملوكاً سرير الشرق تحتهم فهل سألت سرير الغرب ما كانوا
عالين كالشمس في أطراف دولتها فـي كـل ناحيـة ملـك وسـلطان
يا ويح قلبي مهما انتاب أرسـمهم سرى به الهّم أو عادتـه أشـجان
بالأمس قمت على الزهـراء أندُبهم واليوم دمعي على الفيحاء هتّان
معـادن العـزّ قدّمـال الرُّغـامُ بهـم لوهان في تربه الإبريز ما هانوا

وأوحت الشام إلى حافظ شعراً يوحّد به العرب:

عهد الرشيد ببغدادٍ عفـى ومضـى وفي دمشق انطوى عهد ابن مروان
ولا تسل بعده عن عهد قرطبـة كيف انمحى بين أسياف ونيران
فعلمّوا كل حـيّ عنـد مولـده عليـك للـه والأوطـان دينـان
حتـم قضاؤهمـا حتـم جزاؤهمـا فاربأ بنفسك أن تمنى بخسران
النيل وهو إلى الأردنّ في شغف يُهدي إلى بردى أشواق ولهان
وفـي العـراق بـه وجـد بدجلتـه وبـالفرات وتحنـان لسـيحان

فهكذا نجد حافظاً قد خرج عن قومية ضيقة تضم مصر والشام إلى قومية رحبة تسع بلاد العرب فليت الله بعثه في هذه الأيام، حتى يرى

بعينيه أن عهد الرشيد لم يعف ببغداد وأن عهد ابن مروان لم ينطمو في دمشق، ليت الله بعثه حتى يرى بعينيه أثر شعره في استيقاظ العرب من رقدتهم وما أدّت إليه يقظتهم من نعمة الحرية والاستقلال.

فكما جمع شعر « هوميروس» في الماضي قلوب اليونانيين، فكذلك جمع شعر حافظ في الحديث قلوب العرب، وإذا كانت الأسماء والصور والرموز والتقاليد التي وحّد بها الإغريق قبائلهم هي التي خلقت اتحاد الإغريق، فإن أشباه هذه الأسماء والصور والرموز والتقاليد في شعر حافظ إبراهيم كان لها أبلغ الأثر في وحدة العرب.

ولكن الأفق الذي لاحت منه نزعة حافظ العربية إنما هو أفق اللغة، فقد استفاضت، على ما يظهر، دعوة إلى استعمال اللغة العامية في مصر بدلاً من الفصحى، صاحب هذه الدعوة رجل من الإنكليز جاء مصر وخطب في هذا الموضوع وكتب على نحو ما قرأت في خطبة من الخطب التي قيلت في تأبين حافظ إبراهيم في دمشق فكادت الدعوة تعمُّ لولا أن وقف في وجهها شيوخ اللغة وحماتها وكان حافظ إبراهيم لسان أولئك الشيوخ والحماة، فقد نشر قصيدته: اللغة تنعي حظها بين أهلها في سنة ١٩٠٣ أي في مطلع القرن العشرين وقد كانت القومية اختمرت أقوى اختمار أو كادت على أيدي رجال الفكر والشعراء.

يقول حافظ في القصيدة على لسان اللغة:

***أيطربكم من جانب الغرب ناعب  ينادي بوأدي في ربيع حياتي***

وكأن هذا الناعب الذي ينادي بوأد اللغة وهي في ريعان شبابها إنما هو الرجل الإنكليزي الذي دعا إلى العامية في حينه.

لو رجعنا إلى عناصر هذه القصيدة لوجدنا أنها تشير إلى سعة لغة العرب التي وسعت كتاب الله، وإلى تقاعس العرب عن لغتهم ورميها بضيقها عن

استيعاب الحضارة ومذاهبها، وإلى التّرَحُّم على الذين حفظوا لغة العرب في الغابر من السنين وغاروا عليها، وإلى تقريع أهلها وأبنائها من أجل هجرانها والزهد فيها. وقد تضمّنت القصيدة غير ذلك من النزعاتِ التي تدلّ دلالة قوية على حرص حافظ على القومية العربية:

***وسعت كتاب الله لفظاً وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظات***

***فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات***

***أنا البحر في أحشائه الدّر كامن ... فهل سألوا الغوّاص عن صدفاتي***

***فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني ... ومنكم وإن عزّ الدواء أساتي***

***فلا تكلوني للزمان فإنني ... أخاف عليكم أن تحين وفاتي***

قذف حافظ بهذا الشعر المؤثر وقد نضجت القومية كما قلت واشتد الدفاع عن لغة العرب والتغني بآثار هذه اللغة وخصائصها، لقد صدرت قصيدة حافظ في مطلع القرن العشرين، ولكن أئمة اللغة لم يقصروا في خلال القرن التاسع عشر في النهوض باللغة والمراماة دون حياضها، ووضع بعض المصطلحات لما تُفاجأ به من مستحدثات الحضارة، وإذا ذكرت أئمة اللغة الذين دافعوا عنها في مصر والشام والعراق فما ينبغي لي أن أغفل عن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أو عن الشدياق واليازجي وأضرابهم، وقد بلغ حب الشدياق للغته أنه كان لا يذكر لغة العرب إلا قرنها بصفة الشرف، وكان يفضلها على اللغات كلها، فجاءت قصيدة حافظ في هذا الباب خاتمة لهذه النزعة القومية التي استفاضت في القرن التاسع عشر.

وحرام أن نمرّ بهذه القصيدة دون التنبيه على فضيلة حافظ في إدراكه حقيقة اللغة ومنزلتها من الأمم، فقد أدرك حافظ إبراهيم أن اللغة

إنما هي وطننا الروحي، وإذا ذهب الوطن ورسومه بقيت اللغة وآثارها، لقد انبسط ظل الأعاجم على مصر والشام والعراق أحقاباً طويلة، ولئن استطاعوا السبيل إلى الاضطهاد فهم لم يستطيعوا أن يمنعوا شعر المتنبي والبحتري وأبي تمام عن أن يقوم مقام وطن مضطهد، أفلم تقم في الماضي لغة «هوميروس» شاعر اليونان مقام وطن اليونانيين الذين أرهقهم الاضطهاد، اللغة إنما هي مملكة العقل الذي لا يعرف الحدود ولا الموت، لقد أصبحت قبور الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد وغيرهم من أمراء البيان دوارس، لا عين ولا أثر، ولكن بيان هذه الطبقة من رجال العبقرية ظلّ يرتفع إلى عنان السماء حتى عصرنا هذا.

قيمة اللغة ما تعطيه للبشرية فهي تموت في اليوم الذي لم يبق لها شيء نافع تعطيه، فاللغة العربية كانت لغة ملايين البشر، نشأت في القفار والصحارى، ثم أصبحت لغة دين ومثل أعلى وفتوح وبطولات، ثم أصبحت لغة أدب بلغ في عصور العربية كل مبلغ من النضج، ثم أصبحت لغة فلسفة وعمران واجتماع.

أدرك حافظ إبراهيم هذا كله، أدرك أن اللغة ليست مجرّد ألفاظ وأصوات وإنما هي عالم معنوي، فإذا لم يعطها أهلها روحهم فلا تبلغ من القلوب المبالغ، واللغة العربية أعطاها أئمتها في القديم كل ما ملكوه من العبقرية في مذاهب الفكر وأعطاها شيوخها وشعراؤها في القرن التاسع عشر والقرن العشرين مثل هذه العبقرية فظلّت خالدة على الدهر بفضل حافظ إبراهيم ونظرائه من أحباب العربية وستظلّ ناعمة بهذا الخلود أبد الآبدين.

هذه اللغة هي التي أحبها حافظ وصور هذا الحب في شعره أبلغ تصوير، فنفخ فيها روحه وقلبه وأفرغ فيها عبقريته وتغنى بعظمتها

وذاق محاسنها، وبلا حلاوتها فنعى على أهلها تنكرهم لها ونقم عليهم تقصيرهم في رفع شأنها.

فإذا بحثنا عن النزعة العربية في شعر حافظ إبراهيم فلا نكاد نجد في شعره أبلغ من هذه النزعة وأنطق منها.

فلنمجّد الذين يواظبون على جعل العربية لغة شعر وعلم وفلسفة وتاريخ ونقد وصحافة وخطاب، ولنمجّد الذين يحرصون على صفائها ويحولون دون شيخوختها وهرمها وحافظ إبراهيم على رأس هذه الطبقة.

سلام على مصر! سلام على شاعرها الخالد!

obeikandl.com